المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السابع والثلاثين

١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩١٠ — الموافق ٢٧ شعبان سنة ١٣٢٨

حرب القرم

(٤)

ان ما تقدَّم في الفصول الثلاثة الماضية انما هو مقدمة وتمهيد لهذه الحرب. ولا بدَّ من ذكر تمهيد آخر نتضح به جغرافية القرم نفسها

بلاد القرم او القريم شبه جزيرة في البحر الاسود يكتنفها الماء من كل جهة الاَّ من برزخ ضيق يصل بينها وبين البرّ اسمهُ برزخ پريكوپ كما ترى في الرسم المقابل. وكان غرض الدول المتحالفة على روسيا ان تحتلَّ هذا البرزخ لتمنع المدد عن بلاد القرم وتضيّق على حاميتها الخناق حتى تضطرها الى التسليم وتشترط على روسيا ما تشاء من الشروط لكنها عجزت عن ذلك فاضطرت ان تأخذ القلاع والحصون عنوةً كما سيجيء

وفي جنوبي القرم جبال عالية متوازية سفوحها الجنوبية منتصبة كالجدران القائمة فيتعذر على المهاجم تسلقها. وسفوحها الشمالية منبسطة فيسهل على الروس السير عليها. ولكنها واسعة من اعلاها فتتسع لانشاء الحصون

وجنوبي القرم جبليٌّ كثير الانهر والغدران والحراج والغيطان جبالهُ شجراء واوديتهُ جنان غنّاء وسائر البلاد منبسط يغطيهِ النبات في الربيع والخريف والثلج في الشتاء واما في الصيف فيكون قفراً بلقعاً. وسكانهُ قبائل من التتار وهم اهل ديروقد كان عددهم وقت حرب القرم ٢١٥ الفاً وعدد سائر السكان ٢٠٥ الفاً اخرى وهم من الترك والبلغار والارمن واليهود والالمان والروس. وكان في وسط القرم ثلاث مدن وهي سمفربول العاصمة وباتجه سراي وقراسوبزار. وعلى الساحل ست مدن وهي اوباتوريا وسفاستوبول وبلاكلافا وثيودوسيا وقرطش وبني قلمه

اما الآن فسكان القرم نحو مليون نفس وقد صاروا اهل زراعة وصناعة واكثر غلاتهم القمح والشعير والتبغ وعندهم كثير من كروم العنب ومن صناعيهم بناة السفن والحدادة والدباغة وعندهم معامل لعمل الزيوت والخلّلات والصابون . وللتتار منهم مهارة في صناعة الخشب والحديد والجلد والصوف

وكان الجيش الروسي سنة ١٨٥٤ مع ستة آلف مقاتل منتشرة من خليج بوثيا (في غربي روسيا) الى بحر قزبين هكذا : — ٢٠٧ آلاف في فنلندا وحول بطرس برج على ساحل البلطيك و ١٤ الفاً في بولونيا و ١٨٠ الفاً في بساربيا والدانيوب و ٣٢ الفاً قرب اودسا وبيقولايف و ٣٩ الفاً في القرم و ٥٦ الفاً بين الدون والقوقاس و ٥٥ الفاً على تخوم تركيا في اسيا

وفي سبتمبر سنة ١٨٥٤ بلغ عدد الجنود الروسية في القرم ٥١ الفاً فكان مع الجنرال خموتوف ١٢ الفاً لحماية شرقي القرم ومع البرنس منشيكوف ٣٣ الفاً من المشاة و ٢٧٠٠ من الفرسان و ١٢٠٠ من القوزاق و ١٧٠٠ من المدفعية . وكان اكثر المشاة مخيمين قرب سفاستوبول ولم تكن روسيا تخشى من ان الدول المتحالفة تقصد بلاد القرم لحصانتها ولانهُ ليس فيها خير يطمع فيهِ ولكنها كانت خائفة على اودسا فلما رأى البرنس منشيكوف السفن آتية الى القرم في العاشر من سبتمبر ناشرة الراية الانكليزية والراية الفرنسوية استغرب ذلك غاية الاستغراب ثم زاد استغرابهُ وقلقهُ بعد ثلاثة ايام لما رأى اسطولاً كبيراً من السفن متجهاً الى تلك الجهة فدنت السفن من اوباتوريا وانزلت الجنود عندها وكان ذلك في الرابع عشر من سبتمبر اي في مثل اليوم الذي دخل فيهِ بونابارت مدينة موسكو . وفي التاسع عشر من الشهر زحفت الجنود على سفاستوبول

ولما رأى البرنس منشيكوف ان الجنود المتحدة احتلت اوباتوريا بعث يطلب نجدة من الجنرال خموتوف من ثيودوسيا ووضع على مرتفعات نهر ألما نحو اربعين الفاً من الجنود و ٩٦ مدفعاً وكانت قيادة الجناح الايمن للبرنس غورتشاكوف والايسر للجنرال كريا كوف

وشرعت الجنود المتحدة في الهجوم بعيد الظهر فعبرت فرقة منها نهر ألما وجعلت تصعد في الشواهق التي فوقهُ حتى اذا رآهم فؤاد الروس امامهم لم يصدقوا عيونهم لان تلك الشواهق كالجدران القائمة يتعذّر تسلقها . ونشبت الحرب بين الجنود الروسية والجنود الفرنسوية فدارت الدائرة على الروس فارتدوا بانتظام الى جهة سفاستوبول وكانت الجنود الانكليزية قد عبرت النهر من مخاضة وهاجمت الحصون التي عليهِ بقيادة دوق كمبردج

فصدّتها الجنود الروسية بقيادة البرنس غورتشاكوف وكادت الدائرة تدور على الانكليز لو لم يرسل المرشال سنت ارنو نجدة لم فاضطر البرنس منشيكوف حينئذٍ ان يرتد بجنوده ولم يسلم من ضباط جيشه سوى عشرة والباقون قتلوا او جرحوا . ودامت هذه المعركة ثلاث ساعات خسر فيها الروس ٧٠٠٠ بين قتيل وجريح والانكليز الفين والفرنسويون الفاً وخمس مائة

ونزلت معركة الما كالصاعقة على رؤوس الروس لانهُ لم تطأ قدم عدوّ بلادهم منذ سنة ١٨١٢ والقرم احصن سواحلهم كلها برّاً وبحراً لكن اسطولهم قُهر فيها وجنودهم دارت الدائرة عليها وحصونهم لم تقها . غير ان المعركة الفاصلة بين تلك الدول لم تكن هناك بل في سفاستوبول حيث أرتوت الارض بدماء القتلى والجرحى وخطّت القنابل في صخورها رموزاً لا يفهمها الاّ من عرف اسباب الحروب ونتائجها

وكانت سفاستوبول مدينة زاهرة فيها من السكان نحو ٤٣ الفاً ومن المباني الفاخرة مالا وجود لهُ الاّ في المدن الكثيرة الثروة فلم يبقَ بها بعد الحرب الاّ اربعة عشر بيتاً لم تهدمهُ المدافع او لم تلتهمهُ . وموقعها الطبيعي من احصن المواقع عدا ما حوطها من الحصون وهي تشرف من الشمال على خليج كيرطاغن في البر من افضل مرافئ اوربا طولهُ نحو اربعة اميال وعرضهُ ثلاثة ارباع الميل وعرض مدخلهِ ٩٣ قدماً فقط فتسهل حمايتهُ . وعمقهُ ست قامات الى عشر فيسع اسطولاً كبيراً من اضخم البوارج . وحول المدينة خلجان اخرى اصغر من هذا وكلها مرافئ امينة

ويقال ان منظر هذه المدينة وما حولها كان من اجمل المناظر في المسكونة وكان يخرقها شارعان بديعان حولها منازل فاخرة مبنية من حجارة ناصعة البياض تحيط بها حدائق غناء وكان فيها كثير من الكنائس بقبابها الشاهقة وعلى مقربة منها كنيسة القديس ولديمير حيث تنصّر اول قيصر من قياصرة الروس فكان لها مقام ديني عظيم عندهم . ومن حصونها وطوابيها حصن الكورنتينا وحصن قسطنطين من الشمال وحصن الاسكندر من الجنوب عدا اربع طوابي حصينة وكل ذلك من جهة البحر اما من جهة البر فكانت عزلاء لا حصون تقيها

وكان القيصر قد عزم على تحصينها بثمانية حصون من جهة البر ولكن مضى ست عشرة سنة ولم يتم منها الاّ حصن واحد . ولما اشاعت الجرائد الاوربية ان في عزم الدول الهجوم عليها لم يصدّق الروس ذلك لكنهم شرعوا في اقامة الحصون المشار اليها او ما ينوب منابها فاثاروا طابية من التراب على تلة بعد تسع سبعة مدافع وبرجاً مستديراً على تلة ملكوف محيطة

٤٥ متراً وعلوه عشرة امتار واقاموا امامهُ طابية في شكل نصف دائرة . واقاموا طابيتين اخريين . فلما دارت الدائرة عليهم في معركة ألما استفاقوا من غفلتهم واخذوا يصلحون ما اهملوهُ السنين الطوال

قلنا ان سكان سفاستوبول كانوا نحو ٤٣ الفاً لكن ٣٥ الفاً منهم كانوا من الجنود البرية والبحرية فكأنَّ المدينة كلها كانت حصناً واحداً وسكانها حاميتها ولم يكن فيها من النساء سوى خمسة آلاف وكنَّ كلهنَّ معتادات على المعيشة البحرية . وكان السكان كلهم على قلب واحد ورغبة واحدة محبين لوطنهم متمسكين بديانتهم يخافون البرنس منشيكوف وينفرون منهُ لما يرونهُ فيهِ من الشمم والترفُّع الاَّ انهم كانوا يميلون الى اميري الاسطول والى القائد تودلبن . وكان من رأي احد الاميرين ان يهجم الاسطول الروسي على الاسطولين الانكليزي والفرنسوي تهجم كل سفينة من سفن الروس على اكبر سفينة تلتقي بها من سفن العدو وتجتهد ان تغرقها ولو غرقت هي معها لكن البرنس منشيكوف سفَّه هذا الرأي وامر هو ومجلس حربهِ ان تغرَّق سبع سفن في مدخل المرفإ وان تنقل المدافع والميرة من السفن الى البر فنقلوا ثلاثة آلاف مدفع وثمانية عشر الف جندي . اتلفوا القوة البحرية لكي يقوّوا القوة البرية فخسروا الاثنتين مع انهم اقاموا الحصون حول سفاستوبول بسرعة لا تصدَّق عملوا بها نهاراً وليلاً وملأوها بالمدافع واشهرها حصون المركز والعلم وملاكوف وقادتهم في ذلك امراء البحر كورنيلوف واستومين وخيسوف وكلهم لقوا حتفهم عند حصن ملاكوف كما سيجيء

وفي الرابع والعشرين من سبتمبر خرج البرنس منشيكوف من سفاستوبول وعسكر الى الجنوب منها مخافة ان يفصل العدو بينهُ وبين البر ويقطع المدد عنهُ وابقى في سفاستوبول ثلاثين الفاً لحمايتها

واستولى الانكليز على بالاكلافا في السادس والعشرين من سبتمبر وعسكر الفرنسويون في الاكام المشرفة عليها وجعلت الجنود الانكليزية والفرنسوية تدفن من الحصون الروسية بعد ان حفرت الخنادق للاحتماء بها وكان عدد الجنود الفرنسوية حينئذٍ ٤٢ الفاً ومعهم الاي من الجنود العثمانية فيهِ خمسة آلاف وعدد الجنود الانكليزية ٢٢ الفاً . وكان الانكليز قد نصبوا ٧٣ مدفعاً والفرنسويون ٤٩ مدفعاً فقابل الروس الفرنسويين باربعة وستين مدفعاً والانكليز باربعة وخمسين مدفعاً عدا ما في حصون الروس من المدافع الكثيرة

وفي السابع عشر من اكتوبر ابتدأ اطلاق المدافع على برج ملاكوف واستمرَّ اطلاقها ثلاث ساعات فاسكتت المدافع الروسية المدافع الفرنسوية وكان الفوز بنوع عام للروس .

وكانت البوارج الانكليزية والفرنسوية قد اشتركت في المعركة لكن دارت الدائرة عليها فأذتها مدافع الروس كثيراً وقتل في هذه المعركة الاميرال كرنيلوف الروسي وهو من ابطال حرب القرم المشهورين اصابتهُ كلّة مدفع فقضت عليهِ وكان آخر كلمة نطق بها « بارك الله روسيا وامبراطورها وخلص سفاستوبول والاسطول » . واستمرّ اطلاق المدافع ثلاثة ايام أخرى على غير جدوى غير احراق البارود وقتل بعض القباط من الطرفين . وكان الفان من الفرنسويين والانكليز يحفرون الخنادق كل هذه المدة للدنو من حصون الروس . وعزم البرنس منشيكوف على اتخاذ خطة الهجوم والزحف على بلاكلافا فهاجمها في الخامس والعشرين من اكتوبر وكان مع الجنود الانكليزية الف جندي من الاتراك فهجم الروس عليهم فهربوا من وجههم ولم يستمرّوا مدافعهم واستمرّ الروس في هجومهم الى ان بلغوا معسكر الانكليز فهب الانكليز لقائهم وردوهم على اعقابهم وكان موقف الانكليز احصن من موقف الروس فحاول الروس اغراء الانكليز باتباعهم لكي يخرجوهم من موقفهم الحصين فلم يخرجوا منهُ . وعند الظهر رأى لورد رغلان ان الروس اخذوا يجرّون المدافع التي غنموها من الجنود التركية فامر ان تهجم الفرسان عليهم وتصدهم عنها فاخذ لورد كاردیغان ستمئة من نخبة فرسان الانكليز وهجم بهم على « مخالب الموت » كما قال الشاعر تنسون في رثائهم المشهور فاضطر هؤلاء الفرسان ان يخترقوا جيش الروس ذهاباً وايباباً فقتل خمس مئة من خيولهم وسقط منهم مئتان وخمسون فارساً بين قتيل وجريح واقتضى اليوم والغلبة للروس على نوع ما

ثم حدثت معركة اخرى خسر بها الروس ١٨٠٠ والانكليز ٢٦٠٠ والفرنسويون ٨٠٠ . وتوالت المعارك وقامت الطبيعة تشارك المتحاربين فعصفت عواصفها في الرابع عشر من نوفمبر وعبثت بالاسطول الانكليزي واتلفت منهُ ما يساوي مليونين من الجنيهات واغرقت من البحارة الف نفس

وعزم عمر باشا في اواخر يناير على المجيء الى القرم بخمسة واربعين الفاً من جنوده فوصل منهم ٢٥ الفاً الى اوباتوريا في العاشر من فبراير . وكان يسهل عليهم من هناك ان يهاجموا سمفروبول او بربكوب فلما بلغ خبرهم القيصر امر الجنرال رنجل ان يحاصر اوباتوريا ولم يكتف بذلك بل امر ان تؤخذ عنوةً مهما كلف اخذها لانهُ اغتاظ من دخول عمر باشا ارضاً روسية . فتقدّم الجنرال رنجل ضواحي المدينة ورجح عدم الفوز بفتحها ولكن الجنرال خروليف قال انهُ يضمن فتحها اذا كانت القيادة في يدهِ وكان البرنس منشيكوف مجبولاً كالقيصر فاعطاهُ

القيادة لكنهُ فشل فشلاً تامًّا. واغتاظ البرنس مشيكوف من ذلك فاستعفى من قيادة الجيش وخلفهُ البرنس ميخائيل غورتشاكوف

واستمرَّ الروس على تحصين سفاستوبول حتى صار فتحها عنوةً ضربًا من المحال وبينما هم جارون في هذا العمل والجنود المتحالفة تحصّن مواقعها حول المدينة قبض القيصر الى رحمة ربهِ فرجا الناس ان تضع الحرب اوزارها

كان القيصر نقولا الاول من اعظم الملوك جاهًا تربع في سرير الملك ثلاثين سنة اخضع فيها ثوار بولونيا والمجر ورومانيا وقاوم ثورة فرنسا ونجّى النمسا ومنع عود الامبراطورية الالمانية. وحسبت روسيا ان فوزها في سياستها الخارجية يكفر عن الفساد الضارب اطنابهُ في ادارتها الداخلية وان قيصرها هو الكل في الكل وان عينهُ الساهرة تردأ عنها كل ضير وتنيلها كل خير

ولكن لما دخلت عمارة انكلترا وفرنسا البحر الاسود واضطرّت العمارة الروسية الى الحرب منها ودارت الدائرة على الجنود الروسية في معركة ألما ودخلت الجنود التركية اوباتوريا واحاطت الجنود الانكليزية والروسية بسفاستوبول وحصرت البوارج الانكليزية مراقبة روسيا في كل الجهات وجاهرت النمسا بالعداء لها — لما حدث كل ذلك ورأى الشعب الروسي ان اعتمادهُ على حكومتهِ لم يجدهُ نفعًا وان الصروح التي بناها في الهواء على فتح الاستانة وامتلاك ابواب الشرق والغرب قد دكّت الى الحضيض استفاق من سباتهِ وعرتهُ الدهشة وتولاهُ الذعر. وكانت الحكومة قد لجمت الصحافة والطباعة ولكنها لم تستطع ان تلجم اقلام الكتّاب ننشروا النشرات الثورية في البلاد ولا يبعد ان يكون خصومهم قد ساعدوهم على نشرها لانهم اذا استطاعوا ان يثيروا ثائرة الاهلين على حكومتهم سهّلوا على انفسهم سبيل الفوز بالمال ما يكون من الخسائر. ورأى القيصر ذلك فثقلت عليهِ الهموم وقال ان التغيير محال عليَّ فليقدم عليهِ من يأتي بعدي. واصيب بالزكام في السابع والعشرين من فبراير سنة ١٨٥٥ لكنهُ خرج لاستعراض الجيش من غير ان يلبس رداء يقيهِ البرد وقال لهُ طبيبهُ في ذلك فاجابهُ لقد فعلت ما عليك فدعني وشأني فاشتدَّت وطأة الزكام عليهِ وتوفي في الثاني من مارس وهو الثامن عشر من فبراير بالحساب الشرقي لكن الحرب لم تضع اوزارها بل استمرّت كما سيجيء